كتاب الخوف والرجاء

الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود فلا يقود الى قرب الرحمن إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم إلا سياط التخويف فلا بد اذا من بيان حقائقهما *

﴿ بيان حقيقة الرجاء ﴾

قد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض والايمان كالبذر فيه والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء اليها والقلب المشتهر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لاينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد إلا مازرع ولا ينمو زرع الا من بذر الايمان وقلما ينفع ايمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه كما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرًا جيدًا غير عفن ولا مسوّس ثم أمدّه بما يحتاج اليه وهو سوق الماء اليه في أوقاته ثم نقى الشوك عن الارض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظرًا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة الى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمي انتظاره رجاء . وان بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب اليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم

انتظر الحصاد منه سمي انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء . وان بث البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الامطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا سمي انتظاره تمنيا لا رجاء . فاذا اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ماليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه بماء الطاعات وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الايمان في اتمام أسباب المغفرة الى الموت . وان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الاخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور قال صلى الله عليه وسلم (الأحمقُ من أتبعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله) وقال تعالى (فخلَفَ من بعدِهم خَلْفٌ أضاعوا الصَّلاةَ واتَّبعوا الشهواتِ فسوفَ يلقَوْنَ غيًّا) وقال تعالى (فخلف من بعدهم خلفٌ وَرِثوا الكتابَ يأخذونَ عرَضَ هذا الأدنى ويقولون سيُغفرُ لنا) وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال (ما أظنُّ أن تبيدَ هذه أبدًا وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ولئن رُدِدْتُ الى ربّي لأجدَنَّ خيرًا منها مُنقلَبا) فاذا العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بان ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة الا بدخول الجنة وأما العاصي فاذا تاب وتدارك جميع ما فرط

منه من تقصير فحقيق بان يرجو قبول التوبة وانما الرجاء بعد تأكد الأسباب ولذلك قال تعالى ﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيلِ اللهِ أولئكَ يَرْجُونَ رحمةَ اللهِ ﴾ معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمةالله وقال تعالى ﴿ إنّ الذين يتلونَ كتابَ اللهِ وأقاموا الصلاةَ وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانيةً يرجونَ تجارةً لن تبورَ ﴾ فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية قال يحيى ابن معاذ من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة . وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة . وانتظار زرع الجنة ببذر النار . وطلب دار المطيعين بالمعاصي . وانتظار الجزاء بغير عمل . والتمنى على الله عزّ وجلّ مع الافراط *

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لاتجرى على اليبس

فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف فى التملق له فان هذه الأحوال لابدّ وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصاً من الأشخاص فكيف لايظهر ذلك فى حق الله تعالى فان كان لايظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمنى *

﴿ بيان حقيقة الخوف ﴾

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال . والعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحراق القلب وتألمه وذلك الاحراق هو الخوف . فالخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعاً وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه لايسأل عما يفعل وهم يسألون تكون قوّة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ﴿ أنا أخوفكم لله ﴾ وكذلك قال الله تعالى ﴿ إنّما يخشى اللهَ من عبادِهِ العلماء ﴾ ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات أما في البدن فبالنحول والبكاء وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل وأما في الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه اذا عرف أن فيه سماً فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد ولا يكون له شغل إلاّ المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات . وما ورد في فضيلة

الخوف خارج عن الحصر . وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ وكل مادلّ على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم *

﴿ الدواء الذى يستجلب به الخوف ﴾

اعلم أن من قعد به القصور عن الارتفاع الى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم الى مناصب الراجين المغرورين فلا يتمارى فى أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأوّلين والآخرين وكان أشد الناس خوفا حتى روى أنه سمع قائلا يقول لطفل مات هنيأ لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال ﴿ مايُدريك أنّهُ كذلكَ واللهِ إنّى رسُولُ اللهِ وما أدرِى مايَصنَعُ بى إنّ اللهَ خَلَقَ الجنّةَ وخلقَ لها أهلاً لا يُزادُ فيهِم ولا يُنقَص مِنهُم ﴾ وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضاً على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأوّلين لما قالت أم سلمة هنيأ لك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لا أزكى أحداً بعد عثمان وروى فى حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيأ لك هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت فى سبيل الله

فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ وما يُدْرِيكِ لعلَّهُ كانَ يَتكلّم بما لا يَنفعُهُ ويَمنعُ مالا يَضرُّهُ ﴾ وفى حديث آخر أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيأ لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَن هذهِ المُتألّيةُ على اللهِ تعالى وما يُدريكِ لعلَّ فلانا كانَ يَتكلّمُ بما لا يَعنيهِ ويَبخلُ بما لا يُغنيهِ ﴾ وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول ﴿ شَيّبَتْنى هُودٌ وأخواتُها سورَةُ الواقِعة وإذا الشّمسُ كُوّرَتْ وعمَّ يَتساءلون ﴾ فقال العلماء لعل ذلك لما فى سورة هود من الابعاد كقوله تعالى ﴿ ألا بُعداً لِعادٍ قومِ هُود ، ألا بُعداً لِثمودَ ، ألا بُعداً لمَدْينَ كما بَعُدَت ثمودُ ﴾ مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها . وفى سورة الواقعة ﴿ لَيسَ لوَقْعتِها كاذبةٌ خافِضةٌ رافِعةٌ ﴾ أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة أما خافضة قوماً كانوا مرفوعين فى الدنيا وأما رافعة قوماً كانوا مخفوضين فى الدنيا وفى سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله تعالى ﴿وإذا الجَحيمُ سُعّرَت وإذا الجَنّةُ أُزْلِفَت علمَت نَفسٌ ما أحْضَرَت﴾ وفى عم يتساءلون ﴿ يومَ يَنظُرُ المَرءُ ما قَدّمت يَداهُ ﴾ الآية . وقوله تعالى ﴿ لا يَتكلّمُونَ إلاّ مَن أذِنَ لهُ الرَّحمنُ وقالَ صَواباً ﴾ *

والقرآن من أوّله الى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه إلاّ قوله تعالى ﴿ وإنّى لغفّارٌ لمَنْ تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً ثمَّ اهتَدى ﴾ لكانَ كافياً إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها . وأشد منه

قوله تعالى ﴿ فأمّا مَنْ تابَ وآمنَ وعملَ صالحاً فعسى أن يكونَ منَ المُفلحينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليسألَ الصّادقينَ عن صدقِهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ سنفرُغُ لكم أيُّها الثّقلانِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ أفأمنوا مكرَ اللهِ ﴾ الآية . وقوله ﴿ وكذلكَ أخذُ ربّكَ إذا أخذَ القُرى وهيَ ظالمةٌ إنّ أخذَهُ أليمٌ شديدٌ ﴾ وقوله ﴿ فمن يعملَ مثقالَ ذرّةٍ خيراً يرَهُ ﴾ الآيتين . وكذلك قوله تعالى ﴿ والعصرِ إنّ الإنسانَ لفي خُسرٍ ﴾ الى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران وانما كان خوف الأنبياء مع مافاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى ولا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون وخوف الكاملين لايصدر إلاّ عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعانى صفاته . فأجهل الناس من آمنه وهو ينادى بالتحذير من الأمن . وكيف يؤمن تغيّر الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشد تقلبا من القِدْرِ في غليانها وقد قال معاذ بن جبل رضى الله عنه أن المؤمن لايسكن روعه حتي يترك جسر جهنم وراءه وروى عن مخاوف الأنبياء والصحابة والتابعين ومن بعدهم مالايحصى ونحن أجدر بالخوف منهم ولكن صدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلا قرب الرحيل ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحرّكنا ولا خطر الخاتمة يزعجنا ومن العجائب إنا إذا أردنا المال فى الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبرارى وخاطرنا ونجتهد فى طلب أرزاقنا ثم إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذى اليه رجاؤنا جلّ جلاله يقول :

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . ولا يغرنكم بالله الغرور . يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فما هذه الا محنة هائلة ان لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتدارکنا بها فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا بمنه وفضله *

كتاب الفقر والزهد

﴿ فضيلة الفقر والفقراء الراضين الصادقين ﴾

عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ يدخل فقراء امتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام ﴾ وعنه صلوات الله عليه ﴿ من أصبح منكم معافى في جسمه آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ﴾ ولما طلبت سادات العرب وأغنياؤهم من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينحى عن مجلسه فقراء الصحابة ترفعا عن مجالستهم اذا جلسوا اليه نزل قوله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم ﴾ يعني الفقراء ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ يعني الأغنياء ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ يعني الأغنياء . واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ يعني ابن